

تجاربنا التاريخية في تعريب العلوم

إعداد

د. عبد الهادي التازي^(*)

لم يغفل المغرب عما كان يجري في أوروبا التي توجد منه على مرّى حجرة كما يقولون، سيما عندما كان سفراؤه يعودون من مهماتهم وقد دونوا في مذكراتهم عن مشاهداتهم في تلك البلاد خلال القرن السابع عشر والثامن عشر... مشاهداتهم ليس فقط على الصعيد المعماري أو الاجتماعي والاقتصادي ولكن كذلك في الميدان العلمي الصرف الذي كان يأخذ باهتمام بعض سفرائنا من أمثال محمد بن عثمان المكناسي الذي أعطى في مخطوطته (البدر السافر) ترجمة حية لما تلقاه في قبادس عام ١١٩٦هـ - ١٧٨٢م من معلومات عن الأوكسجين حيث «شاهد آلة يجذب بها الهواء من بقعة، ويرد إليها، وأروه مثلاً لذلك فأتى بأنية من الزجاج لاقر لها ووضعوها على طبلية جعلت عليها تلك الآنية وآتوا بطائر من قفص وأدخلوه الآنية وغطى فمها، ونحن يقول ابن عثمان: نرى الطائر من ظاهر الزجاج فقال المرشد: إن داخل هذه الآنية مملوء بالهواء وفيه يجول نفس الطائر وها أنا أحرك هذه الآلة، كانت بيده وأجذب ما في داخل هذه الآنية من الهواء، فلا يجد نفس الطائر مجالا فيموت، فقام بتلك الحركة مرات قلائل وإذا بالطائر يضطرب ويسقط لحينه! فقال: إن تماديت على هذا العمل يموت وها أنا أرد له الهواء فيفيق فأدار الحركة إلى الناحية الأخرى فدخل الهواء إلى الطائر...».

(*) عضو أكاديمية المملكة المغربية وجمع اللغة العربية بجمهورية مصر العربية.

وفي اعتقادي أنه ما كان يمنع المغرب من الاستفادة مما يوجد في أوروبا إلا شيء واحد: ذلك هو الخوف من غزوها لبلادها عن طريق هذا العلم، فقد كان من المتعذر جداً أن يأخذ المغرب بجانب من الحياة الأوروبية ويترك الجانب الآخر!!

لكن الأحداث كانت تسير بسرعة زائدة في المنطقة، وهكذا أصبحت فرنسا جارة لنا في المغرب الأوسط عوض العثمانيين، الأمر الذي جعلنا نقدم مساعدتنا للجزائريين... ولم يلبث المغرب - وهو يقدم تلك المساعدات أن دخل مع فرنسا في معركة إيسلى (١٢٦٠هـ - ١٨٤٤م) التي نبهت المغرب إلى ما يجب أن يكون عليه.. وقد أتت إيسلى باحتلال الجزر الجعفرية من قبل أسبانيا عام ١٢٦٦هـ - ١٨٤٨م. وهنا ازداد وعينا بالمشكلة الأوربية!

ومن هنا كانت صحوة المغرب على عهد السلطان المولى عبد الرحمن الذي وجدنا ابنه الأمير محمد يقوم بعدد من المبادرات التي كانت تعكس الرغبة الملحة في الخروج من حالة الركود... كثيرة هي الأمثلة التي تترجم عن حركة الإقلاع تلك، فقد تجلت أولاً في البعثات الطلابية إلى الخارج إلى القاهرة أولاً ثم إلى بعض البلاد في أوروبا....

وتجلت في إنشاء مدرسة للهندسة بفاس الجديد، كما تجلت في العمل على استيراد الكتب العلمية والحث على نشرها تيسيراً على الذين يطمحون إلى تعريب العلوم هذا أيضاً إلى إصلاح مناهج التعليم في جامعة القرويين التي كانت تضاهي الجامع الأزهر في مناهجها وطرق تعليمها وجعلها تستجيب لحاجيات العصر التي تقتضي تحصيل العلوم على حد تعبير المرسوم الملكي عام ١٢٦١هـ - ١٨٨٥م^(١).

(١) د. التازي: تاريخ جامع القرويين ج ١١١ ص ٧٢٧ طبع دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٧٢م.

وحتى يعطى الأمير محمد بنفسه المثل القدوة وجدناه يهتم بالعلوم البحتة، فيشجع على تلقينها ويعمل هو على تعريبها حتى تصبح في متناول الطلاب الراغبين، فإن البلاد ليست في حاجة فقط الى الفقهاء والقضاة والكتاب والشعراء، ولكنها في حاجة كذلك للأطباء والمهندسين ورجال المدفعية، وبهذا نفس نشاط الحركة العلمية على ذلك العهد ونفس كذلك وفرة العلماء المهتمين بمثل تلك الحقول المعرفية بل ونفس مغزى استقدام الحكومة لعدد من الخبراء من خارج البلاد بمن فيهم المصريون الذين كانوا يعملون في حقول قصب السكر.

واعتماداً على المقولة الذكية التي يرويها ابن بسام عن الحسن البصري رحمه الله: «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» شاهدنا طائفة من رجالات المغرب، تقليداً للأمير المذكور يتنافسون فيما بينهم ويتعاونون في مجال تعريب العلوم...

وإثراء للموضوع سنقدم عمليتين اثنتين: قام بهما هذا الأمير المستير: كانت البداية أنه قام بعمل جريء للغاية، ذلك أنه أشرف على تعريب موسوعة كبيرة في علم الفلك باللغة الفرنسية في ثلاث مجلدات وأحضر لذلك لفيفا من العلماء فكان يراجع ما يكتبون عن كتب إلى أن أنهى العمل في الموسوعة عام ١٢٦٨هـ - ١٨٨٢م.

وقبل أن نأخذ فكرة كاملة عن المنهاج العلمي الذي سلكه الأمير الجليل في ذلك التعريب أرجو أن أقدم مؤلف الكتاب المعرب حتى نعرف قيمة الشخص الذي قام بالتأليف، ونعرف من خلال ذلك، الدرجة العلمية للأمير المذكور وهو يقوم بعملية الاختيار.

كان ذلك العالم الفرنسي هو جوزيف لالاند Joseph Jérôme Lalande عضو أكاديمية العلوم بباريز وقد كان أستاذاً لعلم الفلك في كوليج

فرنسا وقد أصبح مديراً للمرصد الذي أنشأه هو في المدرسة العسكرية بمشاركة ابن أخيه ميشيل جان جيروم ولالاند وزوجة هذا الأخير ماري جان أميلي لالاند، وقد انكب على الدرس وجمع عدداً هائلاً من الملاحظات ضمنها كتابه (Histoire Celeste Francaise) حيث وصف أكثر من ٤٧٠٠٠ نجم!

ومن بين كتبه نذكر (Traité d'astronomie) الذي صدر عام ١٧٦٤ والذي ظل لوقت طويل مصدراً من المصادر الهامة حول هذه المادة، وإلى جانب كل هذا صدر له عام ١٨٠٣:

"La bibliographie astronomique"^(٢).

ومن بين هذه المؤلفات اختار الأمير المغربي هذا الكتاب الأخير الذي يلخص حصيلة التجربة العلمية لجوزيف لالاند طوال فترة فسيحة من حياته. سأضع بعض الصفحات من المخطوطة التي تحتفظ بها الخزنة الحسنية بالرباط أمام الذين يهمهم الأمر لنعرف عن مدى الجهد الذي بذله الرجل من أجل أن يجعل زملاءه من علماء الفلك، في نفس الجو الذي كان يعيشه الأمير وهو يفتح آفاقه على ما تجدد في أوروبا من تطورات حول علم الفلك... والطريف في منهاج الأمير المذكور أنه، وهو يقدم للكتاب، كان يشعر بمدى الحاجة إلى تعريب العلوم على عهده.

«...إنني لما نظرت في هذه العلوم الرياضية التي فيها الحساب والهيئة والهندسة... وجدت الوقوف على كنه التحقيق المحض فيها لا يكون بمجرد التقليد فيها... ولما كان ذلك لا بد فيه من الرصد للأجرام العلوية بحثاً عن أقرب الأرصاد إلى زماننا فوجدنا كتاباً حقيقاً عجبياً، مانعاً جامعاً لكل ما يحتاج إليه الناظر في هذه الصناعة ناهيك من كتاب لا يدرك وصفه الواصف بمقاله،

^(٢) Michel Mourre: Dictionnaire d'histoire Universelle, paris 1968.

مع ما اعتمد مؤلفه والتزمه من التحرير البالغ غاية الغايات... وتأيد المسائل بالحجج الواضحة اليقينية، والأشكال الهندسية والأمثلة العددية والأقيسة الجبرية... إلا أنه باللسان والقلم الأعجميين لأن مؤلفه من أهل باريز وكان رصده سنة ١٩٧٣م.

وكان من فضل الله علينا يقول الأمير: إن حضرتنا العالية بالله قد احتوت على جماعة وافرة ممن أوتهم ظلال دولتنا الشريفة المنصورة الظافرة... حتى أصبحت بلادنا العزيزة كعبة النجباء الحذاق ومطافاً للعلماء من جميع الآفاق من كل عارف بالأسنة والأقلام... فأمرناهم بتعريب الكتاب المذكور وإخراجه من الظلمات إلى النور... وكل ذلك بمرأى منا ومسمع، ومحضر لنا ومجمع. تعرض علينا كل يوم مخرجاتهم فنبالغ فيها بالتفتيح والتصحيح... حتى برز بحمد الله في أحسن الصور وأجملها وأتم الوجوه وأكملها.

إلى جانب هذا التقديم الجميل نجد الأمير الجليل يكشف عن المبدأ الأساسي الذي اتبعه في خطته:

ذلك أنه لا يتكلف إطلاقاً في التعريب أى أنه لا يتعثر لكى يبحث عن لفظ تقنى عربى قد يجده وقد لا يجده!! ولكنه يضع المصطلح كما هو إلى أن يفتح الله بالحصول على المفرد المطلوب باللغة العربية الفصحى! وكان هذا المنهج يذكرنا جيداً فيما قرأناه في كتاب (الجامع) للطبيب الصيدلى ابن البيطار الذى كان ينصح بل يلح على أن يكون هذا هو المنهج المتبع بالنسبة للذين يقتبسون من الكتب بأى لغة كانت... وهذا هو السر في أن مفردات ابن البيطار نجدها أحياناً باللغة العربية وأحياناً بالبربرية أو اليونانية أو الرومانية... ومن أجل ذلك كان يحكم القبض على مادته لكنه مع هذا يذكر الأدوية بأسمائها المعروفة بها في تلك اللغات. وقد أفادنا ابن أبى أصيبعة في موسوعته. عن

(طبقات الأطباء) قال: إنه، أى ابن جلجل ترجم أسماء الأدوية المفردة من كتاب دسقوريدس Discorides وأفصح عن مكنونها وأوضح مستغلق مضمونها وقال: إن هذا الكتاب ترجم أولاً بمدينة السلام وكان المترجم له هو اصطيفان ابن باسيل (Istifan B. Basil) الترجمان من اللسان اليونانى إلى اللسان العربى، فما علم اصطيفان من تلك الأسماء اليونانية في وقته أن له أسماء في اللسان العربى فسّره بالعربية وما لم يعلم له في اللسان العربى تركه في الكتاب على اسمه اليونانى اتكالا منه على أن يبعث الله بعده من يعرف ذلك ويفسر باللسان العربى...! فاتكل اصطيفان على أشخاص يأتون بعده ممن يعرف أعيان الأدوية التى لم يعرف هو لها اسماً في وقته.. إلى آخر النص المفيد الذى أورده بالكامل ابن أبى أصيبعة عند ترجمة الطبيب ابن جلجل.

هذا المبدأ الأساسى هو الذى وقع عليه اختيار الأمير عند ترجمته العلمية لموسوعة (لالاتد) ... فلقد قال في مقدمته:

«واعلم أن ما نتفّ عليه في هذا التقييد من الألفاظ الباقية من غير تعريب» قد اقتضى الحال بقاءه كذلك باللفظ العجمى، لأنها إما أسامى كتب أو أسامى الواضعين من اليونان والفلاسفة أو بلد من بلدانهم.

ويلاحظ نتيجة لهذا، أن المصطلحات تبقى عند الأمير على حالها مرسومة على الشكل الذى اختاره لها المؤلف الأصيل... كما يلاحظ أيضاً - وهذا مهم - أن الأرقام لاتكتب بالهندية التى أشاعها العثمانيون في بلاد المشرق ولكنها تكتب على الطريقة المغربية التى عرفت منذ أيام ابن الياسمين في القرن السادس الهجرى وهى التى تحمل في الاصطلاح الغربى اسم الأرقام العربية Les chiffres Arabes وهكذا نجد أن هناك مبادئ محددة للترجمة العلمية في المغرب الأقصى منذ أزيد من قرن ونصف من الزمان...

إن هناك عملاً علمياً آخر شجعه التعريب على ابتكاره ويتعلق الأمر هذه المرة بعمل إبداعى رفيع قام به وهكذا وقفنا على رسالته التى يصف فيها طريقة الاستفادة من آلة اخترعها هو لإستخراج المطالب الفلكية. وقد أفاد الأمير محمد الذى أصبح هو الملك محمد الرابع، أفاد في هذه الرسالة أنه عهد إلى بعض زملائه بصنع هذه الآلة بعد أن وضع تصميمها وأن هؤلاء الزملاء نفذوا الإشارة وأتقنوا صنع الآلة وطرزوها ففاقت الآلة الآتية من بلاد الروم..!

وهكذا نلاحظ أن هناك متابعة جديّة - على صعيد القيادة - لما كان يظهر في أوروبا من مخترعات وأدوات .. وبخاصة في المجال العلمى الصرف.

وإذا عرفنا أن الملك الحسن الأول كان أبناً للملك محمد الرابع أدرکنا إذن ما يمكن أن يتميز به عصر هذا الملك العظيم الذى نجد أن في أول ما قام به في هذا الميدان إنشاء مدرسة أخرى للترجمة في مدينة طنجة... كان المهندس المغربى الزبير سكيرج من خريجها لم تكن هذه المدرسة الحسنية معدة للترجمة بين الناس فيما يتحدثون به من القول المعتاد ولكن مدرسة للترجمة العلمية يتخرج منها المهندسون، ويكفى أن نذكر أم موادها كانت تعتمد على الحساب والهندسة والتنجيم والجغرافية علاوة على تعلم اللغات الأجنبية على ما تفيد المراسلات الحكومية التى يحتفظ بها الأرشيف المغربى...

وقد ظهرت نتيجة لهذا نخبة من رجال العلم الذين تركوا لهم بصمات في حقول الترجمة العلمية ... وعلى صعيد التأليف كذلك على نحو ما قلناه عن المرحلة السابقة ... بل إن في هؤلاء من دوت أصدائهم بلغات أجنبية، وأقصد إلى من سماه الطبيب الفرنسى فايسجيربير F.Weisgerber (١٨٦٨-)

١٩٤٦) في إحدى محاضراته بتاريخ أبريل عام ١٩٣٣ في فاس أثناء انعقاد مؤتمر معهد الدراسات العليا، أقول سَمَاه الحاج محمد أحمد السوسي، وقد التقى به صدفةً وكلاهما يؤدي مهمته المعهودة إليه^(٣).

فمن طريق ذلك الطبيب قرأنا عن هذه الشخصية العلمية المغربية التي كان لها دور في القرن الماضي في تحريك تعريب العلوم.

وقد كان من آثار الحاج أحمد السوسي.. *أولاً* رسالته في شرح طريقة العمل بجداول اللوغاريتمات، والذي جعلني أذكر هذا التأليف ضمن المحاولات الأولى *للترجمة العلمية* أن الحاج أحمد السوسي يظهر من خلال هذا الكتاب كعالم كبير يستفيد مما ترجمه عن اللغات الأجنبية بل إنه أكثر من هذا يعلق على ما يزعمه بعضهم من قصور اللغة العربية عن تبليغ القضايا العلمية ويؤكد أن العرب أصلاء في هذه الميادين!

ومن المهم أن نذكر هنا أن المؤلف وهو يعقب على ذكر مخترع الجداول اللوغارتمية المعروف تحت اسم نابي Napier والذي يدعونه نَيْبِر (Neper) أقول يعقب السوسي على تلك الجداول العامة النفع الحسنة الإفادة بقوله الذي يدل على أن الرجل يعيش مع أحداث عصره وأنه على صلة باللغة العلمية التي تُولف بها كتب الفلك: قال:

اعلم أن الروم مسبقون بما ادعوا اختراعه من هذه الأسوس الأصلية والنسب الأساسية وليست لهم فضيلة اختراع، لأن عظماء الإسلام - أبقي الله بركتهم - هم المتكلمون في ذلك، والمؤسسون له قديما، وقد نص على ذلك

(٣) العباس بن إبراهيم: الأعلام عن حل بمراكش من الأعلام ج ٢، ٤٥٣ - المطبعة الملكية، الرباط ١٩٧٤م.

عمد المنونى: مظاهر يقظة المغرب الحديث ١٣٩٢ = ١٩٧٣ ص ١٠٥ - ١٥٢ -

ابن البناء في التلخيص وفي الأصول والمقدمات من علم الجبر، ونظمه الإمام ابن الياصمين (ت ٦٠١هـ)، ثم الإمام ابن الغازي (ت ٩١٩هـ).

ثانياً: ترجمته لرسالة تتعلق بآلة حسابية من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية التي ينعتها باللغة الشريفة، وينص نصاً على أنه ترجمها بالمعنى وتصرف فيها بعض التصرف، وأنه تحاشى فيها ذكر مالا طائل تحته، وأنه أضاف أمثلة أخرى رغبة في زيادة الإيضاح وأنه علاوة على ذلك نبه على نكت أغفلها المؤلف في الأصل...

ويتعلق الأمر بتأليف يعالج ايرتمومتر Eritmometre أى الحساب المقياس، ومن الطريف، أن نجد الحاج أحمد السوسي يثبت في أول ورقة من المخطوط نماذج من الحروف التي نعتها باليونانية ويقابلها بنظيرها في اللغة العربية:

أ - ب - س - د - م - ن - و - ب

A - B - C - D - M - N - O - P

وبناء على هذه الحروف أخذ يعالج داخل التأليف المعرب طريقة الاستفادة من الآلة الحسابية المذكورة وهو يقول في آخر الرسالة «إن الفراغ من تعريبها كان يوم الأربعاء خامس ذى الحجة الحرام عام إحدى وتسعين واثنى عشر مائة من الهجرة (١٣ يناير ١٨٧٥) وقد وضع خاتمة في الآخر وهو يحمل هذه العبارة: أحمد بن عبد الله - مراكش.

وهذه الرسالة تحمل في الخزنة الحسنية رقم ١٧٣٨ وهذه صورة لجانب

فيها:

التي لم تكن وحدها وملأها ولم على من لا يجرؤ ان يعبه

التي لم تكن ان جعل مباح ان يطلع ان يفتات علم الحساب ان يفتات الشئ
عنه انما كان كاشفاً جميع المعاملات عليه ورا حساب وملا انما على يد
وسرنا بجر الميعون الله مرة وراهم من عجم وعرب وعلى الله وجهه وتابعهم
المتدبرين اولي في الباب وبشعر من انهم رمانه على نالة حياينة
من الله في انهم نارية اني اللغة التي لم يمتة تم حتماً بالغير وتمت
بها بعد انتم بان حثيث ما لا حلا بل فيهم وزيدنا امثلة زائدة على
فرايضهم ونبت على نكت اغلها في اهل انتم على جميع التمهيل في
بلا الله في انهم على سرقة وخسة بصون انتم في ربيع فزاعة والمصون
في اهل انهم انهم الجمع وانهم وانتم وبنتم في انهم
الصحيفة

المفرمة

نسخة من ربيع فزاعة في اهل معلم فيهم نون يرنان في سكتا N ومريشني

مكتبة
الملك
في
البحر
في
البحر
في
البحر

ترجمة بالفرنسية لرسالة تتعلق بـ إريتموميتر ERITMOMETRE
وهي محفوظة بالخرانة الحسنية بالقصر الملكي رقم ٧٣٨ من تأليف الحاج
أحمد السوسي.

ثالثاً: أما عمله الثالث فإنه نظراً - لاهتماماته بفن المدفعية، واعتباراً لكونه سمي من لدى الملك الحسن الأول رئيس قواد الطبجية فإنني على مثل اليقين من أنه هو الذي قام بترجمة التأليف الفرنسي في علم الطبجية، وقد جعله تحت عنوان «التفكير في عمل ما يصلح للطبجية».

وقد قام المترجم بتعريب عناوين المقالات التي تضمنها التأليف الفرنسي والتي تبلغ أربعاً وعشرين ومائة مقالة، ويوجد هذا المخطوط كذلك بالخرانة الحسنية ضمن مجموع حمل رقم ١٢٤ وهذه صورة للمقدمة:

وبعد فتلك نظرة عاجلة عن التجارب التي ظهرت قبل نحو من قرنين
عن الترجمة العلمية التي كان يقصد بها أصحابها إلى الالتحاق بركب
الحضارة وقد كان من الممكن أن تستمر المسيرة في ازدهارها وتطورها لولا
تأمر الأطماع الأوربية على إفشال كل الخطوات التي يحققها المغرب في
طريق تقدمه إلى أن وقع في شرك الحماية الفرنسية التي أخذت بدورها
تحاول أن تعوض لغته العربية بلغة أخرى تفصله عن جذوره، فكان النضال،
وكانت المقاومة إلى أن استعادت البلاد سحنتها وهي الآن تحت الخطى من
أجل المواكبة ولكن في إطار الحفاظ على المقومات الأساسية التي في صدرها
اللغة العربية التي تعنى السلاح الوحيد الذي يحمي كياننا ويحافظ على
شخصيتنا.